مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م - الجزء الثاني - المجلد الثالث والخمسون

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

الشيـــب ... وبكـــاء الشبـــاب
في الشعر الجاهلي

أ.د. أحمد إسماعيل النعيمي
كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

الملخص :

تشير حصيلتـــــي اســـتقرائنا لطائفـــة مـــن الدواويـــن والمختارات الشعرية الموثقة إلى أن الشيب قد تبلور موضوعـاً شعرياً ذا محتوى فكري واضح المعالم في عدد من القصـــائد ، إذ تارة يستقل بلوحة الشيب وتارة ثانية يكون رديفاً للوحـــات داخلية أو موضوعية ومن هنا يمكن القول أن المســـاحة التـــي يشغلها الشيب في إطار وتلك البنية رهـــن بجمـــاة معطيـــات أبرزها حجم التأثير الذي يتركه الشيب في نفوس الشـــعراء ، ومما تجدر الاشارة إليه أن الشيب لم يكن المرأة التي تعكـــس همـوم الشاعر وهاجسه من أعباء العمر أو (الزمن) حســب . انما هو ايضا انعكاس لمواقف الناس مـــن الشـــيب والمشـــيب على السواء .

ثنائية الحياة والموت ...

من المعروف أن إنسان عصر الحضارات القديمة كان قد خالجته رغبة في نيل الخلود إنطلاقاً من غريزته في حب البقاء ، وتطلعه إلى مشاركته الآلهة استئثارها بالحياة الخالدة ، وفزعه من الموت ، ومخافته من العالم الأسفل الذي رسمته مخيلته بأنه " مصدر تأتي منه الشياطين والأرواح الشريرة ، والبيت الذي لا يرجع منه من دخله ، وقد حرم ساكنوه من النور ، حيث التراب طعامهم والطين قوتهم"[1]. فضلاً عن قلقه مما سيفعله علو السن بالجسد من ضعف وتهافت ! وذلك مما تلمس أبعاده في " ملحمة كلكامش " الذائعة الصيت . ولا سيما أن سرَّ الخلود الذي سعى إليه بطلها كان كامناً في عشب سحري يسمى بـ " الرجل الكهل يعود شباباً .[2]

وعلى الرغم من المضامين الاسطورية التي حفلت بها الملحمة في صياغتها الفنية الشعرية ، إلى أنها أكدت حقيقة فحواها أنّ مواجهة المرء للموت ومحاولة قهره والتغلب عليه ـ وإن كان من أشباه الآلهة ـ غير ذات جدوى ، وأن التمرد على قانون الزمن الصارم وحدوده المرسومة لم يكن ذا جدوى أيضا .

ويبدو أن تقبل الإنسان القديم لهذه الحقائق ، لم يمنعه من التعبير عن معاناته من حتمية الموت ، والشكوى من الزمن الذي يسوقه إليه ـ في نهاية الأمر ـ طال الشوط أم قصر !

---

[1] ملحمة كلكامش ، طه باقر ، بغداد ١٩٧ : ص١٠٤ .

[2] الفلكلور في العهد القديم ، جيمس فريز ، ترجمة : د. نبيلة إبراهيم مصر ١٩٧٣ ، ١/ص٥٢ .

ولعل بكاء " كلكامش " بعد ظفره بذلك العشب وفقـــده أيـــاه[٣]، يفصح عن تلك المعاناة إزاء الموت ، بوصفه نهاية حاسمة لوجوده مـن جهة ، وازاء الزمن من حيث أنه صانع الموت ! من جهـــة أخـــرى . حتى أستقر في الوعي ــ خلال تلك الحقبة التأريخية الموغلة في القدم . أن الزمن هو من يمتلك قوة الأفناء ، أو القاتل الخفي الذي لا يفلت أحـد من براثنه ، وقد بقيت آثار هذه النظرة في معتقدات مجتمعات إنســـانية لاحقة ، ومنها المجتمع العربي ــ قبل الإســـــلام ــ إذ شـــارك تمثـــل تطبيقها ــ على ارض الواقع ــ في تشخيص بعض العرب الزمن أو الدهر الذي يرادفه كثيراً بآلهة بعينها ، التمسوا منها إبعاد ما يكرهون من موت أو فرقة ، وشقاء وبؤس[٤]... وذلك ما حكاه لنا القرآن الكريـم على لسان المشركين في قوله تعالى : (وقالوا مَا هِي إلا حَيَاتُنا الدُّنيـــا نَموتُ ونَحيا ومَا يُهلكُنا إلاَّ الدهرُ)[٥].

أي زعموا ان الذي يهلكهم هو مر الليـــالي والايـــام وطـــول العمر ، إنكار منهم ان يكون الله ــ جل وعز ــ هو من يهلكهم ويفنيهم. فضلا عن أشعارهم المفصحة عن المنطلق نفسه ، ولعل أقدر النصوص

---

[٣] أنظر : هو الذي رأى (ملحمة قلقمش) عبد الحق فاضل ، بغداد ، ط الثانيـــة ١٩٨١ : ص٤٠٣ ، وكلكامش (اللوح الحـــادي عشـــر) د. ســـامي ســـعيد الأحمد ، بغداد ١٩٩٠ : ص٢٠٠ــ٢٠١

[٤] أنظر : الحياة والموت في الشعر الجاهلي د. مصطفى عبد اللطيـــف ، بغـــداد ١٩٧٧ : ص٨٨ وما بعدها ، والاسطورة في الشعر العربي ــ قبل الإســـلام ــ أحمد إسماعيل النعيمي ، دار سينا ، مصر ١٩٩٥ : ص٢٤٠ ــ ٢٤١ .

[٥] الجاثية : ٢٤ .

الملخصة هذا التصور ، قول ذي الأصبع العدواني :

أهلكنَا الليلُ والنّهارُ معَـــاً والدّهرُ يغدُو مُصَمّماً جَذَعا[٦]

وقول أبي الطمحان القيني :

إنّ الزّمانَ ولا تُفْنَى عَجَائبُه فيه تَقَطُّعُ أَلآفٍ وأقــرانِ[٧]

إلى جانب تظلم الشعراء وشكواهم من الزمن تـــارة ، ونعتــه بصفات غير مستحبة تارة ثانية ، وشتمه ــ في بعض الأحايين ــ تارة ثالثة[٨]. ومعنى ذلك كله أنّ الزمن شكل هاجس من هواجـــس النفــس الإنسانية وباعثا من بواعث قلقها ومعاناتها ، ولعل طرفة بن العبد أقدر من أومأ إلى ذلك بأوجزلفظ وأوفى معنى في قوله :

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقُص الأيامُ والدّهُر يَنفَدِ[٩]

وما ينبغي أن نتأمله في هذا الشأن هو أستقراء نتـــاج شــعراء العصر من زاوية رصد تنبئ بالإحساس المادي بالزمن ، أو بما يجعلــه شاخصا للعيان ، ويوقظ الشعور بجريانه ، ويثير في النفس المخـــاوف من أعبائه ويرغمها على الاستعبار بحوادثه !

ويبدو أن الشيب هو في أوجز معانيه واوضحها " بياض الشعر أو الشعر الأبيض نفسه"[١٠] كان ذلك الشاخص الذي يجعـــل المــرء "

---

[٦] ديوان ذي الأصبع العدواني ، جمعة وحققه عبد الوهاب العدواني ومحمد نــايف الدليمي ، الموصل ١٩٧٣ : ق٩/ ص٥٥ .

[٧] البيان والتبيين ، الجـــاحظ ، تحقيــق : عبــد الســلام هــارون ، القــاهرة ، د.ت :١/ص١٨٧ .

[٨] أنظر : الاستشهادات الشعرية الكثيرة في هذا الشأن في " الحياة والمـــوت فــي الشعر الجاهلي " : ص٩١ وما بعدها .

[٩] ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت د.ت : ص٣٤ .

[١٠] لسان العرب : ابن منظور ، بيروت ١٩٥٦ : شيب .

المشيب أو الداخل في حد الشيب"[١١] مدركا حسيا وشعوريا جريان الوقت في كينونته من جهة ، والقرينة المفصحة عن إدبار الشباب واقبال الشيخوخة ، وتناقص الأعمار ونفادها من جهة أخرى .

والشيب على وفق هذا التصور يتضمن بعدين رئيسين أولهما زمني صرف ، كونه يؤشر مقدار أعمار الناس في فلك الحياة الجاري بجريان الزمن . وثانيهما : ذاتي أو شخصي من حيث إمتزاجه بالنفس وحركتها وتفاعلها في مجري الأحداث[١٢].

وكان لابد من أن يشكل كلا البعدين منطلقاً فكرياً في نتاج الشعراء ولا سيما من علاهم الشيب ، يبلور ردود أفعالهم إزاءة ، إلى جانب تحديد طبيعة نظرتهم الى الكون والحياة والموت والناس والمرأة والشباب والكهولة ، أو بكلمة أخرى يجيب عن تساؤل هو : كيف يلوح الشيب لعينيهم ، ويقع في روعهم ويتمثل في ابداعهم وخيالهم ؟! .

لوحة الشيب ... في بنية القصيدة :

تشير حصيلة استقرائنا لطائفة من الدواوين والمختارات الشعرية الموثقة إلى أن الشيب قد تبلور موضوعاً شعرياً ذا محتوى فكري واضح المعالم في عدد من القصائد ، إذ تارة يستقل بلوحة افتتاح تسمى بـ " لوحة الشيب " على غرار لوحات الأفتتاح الآخر من مثل (الطلل ، أو الخمر ، أو الطيف وغيرها) وتارة ثانية يكون رديفاً للوحات داخلية أو موضوعية عندما يستعين به الشعراء للتعبير عن تجاربهم الشعرية المختلفة ، وذلك ضمن بنية القصيدة المكتملة فنياً ، أو

---

[١١] المصدر نفسه : شيب

[١٢] أنظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، عبد الآله الصائغ ، بغداد ١٩٨٢ : ص٢٦٦ .

ذات اللوحات الفنية أو الموضوعات الشعرية المتعددة .

وإذ نطمئن إلى هذه المعطيات ، فاننا لا نجد مسوغاً لتجاوز القدماء للشيب لدى محاولاتهم تقسيم الشعر العربي الجاهلي منه وغير الجاهلي إلى موضوعات تقليدية وغير تقليدية باختلاف مسمياتها وعددها ، على نحو ما نطالعه عن أبي تمام في " حماسته " وأبي هلال العسكري في " الصناعتين " وقدامة بن جعفر في " نقد الشعر " وابن رشيق في " العمدة " وعلى سبيل المثال لا الحصر .

وإن كانت وجهة نظرنا لا تقر بدراسة الشعر في أي عصر أدبي من خلال الموضوعات التقليدية ، إنما الآجدى أن تكون الدراسة رصداً لمؤثر حسي أو معنوي في الشاعر (مبدع النص) بوصفة كائناً بشرياً مؤثراً ومتأثراً وما يتمخض عن هذا التفاعل من مشاعر وعواطف وأحاسيس تختلج الشاعر ، فضلاً عما يكتسبه من تجارب تؤطر في فكرة أو منطلقات فكرية تودع في قالب فني عادة ما تتحدد ملامحه على وفق خصوصية كل فكرة أو تجربة حياتية بعينها .

ومن هنا يمكن القول أن المساحة التي يشغلها الشيب في إطار تلك البنية رهن بجملة معطيات أبرزها حجم التأثير الذي يتركه الشيب في نفوس الشعراء ، وطبيعة موقفهم من الأحداث التي تستدعي حديثهم عنه بهذا القدر أو ذلك ، أو الظرف الآني الباعث على القول الذي يعول عليه في تقرير حقيقة ان كان الشيب غاية أو وسيلة في صميم التجربة الشعرية . ومما تجدر الأشارة إليه أن الشيب لم يكن المرآة التي تعكس هموم الشاعر وهاجسه من أعباء العمر أو (الزمن) حسب ، أنما هو أيضا انعكاس لمواقف الناس من الشيب والمشيب على

السواء . وذلك ما ينبغي لنا أن نحسب له حسابه في أية قراءة تحليلية لهذه اللوحة الفنية أو تلك ، أو لهذا النص الشعري أو ذلك .

المشيب ... وموقف المرأة منه :

إذا ما سلمنا بحقيقة وصف المرأة بـ (ملهمة الشعراء) .. لغريزة الحب المتبادلة بين طرفي المعادلة ـ ان جاز التعبير ـ الرجل والمرأة ، وأثرها في النشاط الإنساني ، أدركنا دواعي حضورها الفاعل، أو شغلها حيزا واسعا من النتاجات الشعرية والأدبية ، ان كانت حبيبة أو زوجة ـ في الأغلب الأعم ـ أو أما أو أختا أو بنتاً أيضا . ويفيدنا فيما نحن بشأنه ، ذلك الاستقراء الذي نهض به أحد الباحثين حول حضور صور المرأة في القصيدة الجاهلية ، إذ أكد ـ في خلاصته ـ أن (لوحة الشيب) التي تضمها إفتتاحيات بعض القصائد ، هي من اغزر اللوحات احتضانا لها ، بسبب ـ كما يرى الباحث ـ " أنّها تطوع عنصر المرأة ضمن ما تطوعه من عناصر لتقيم منطلق حوار صريح أو خفي يشخص معاناة الشاعر من خلال تأمله المأسلوي لأثر الزمن في تحول المرأة عنه ، وأعراضها عن سمات الشيخوخة التي أسرعت إليه "[١٣] وتلك هي الحقيقة التي يبقى الشعر أفضل شاهد على تثبيت معطياتها وحسبنا في هذه الطائفة من النصوص التي تقرر منطلقاً تكاد تتفق عليه كلمة شعراء العصر ، وذلك في إيجازها نظرة النساء إلى الرجال على نحو ما نتأمله في قول امرئ القيس

أراهُنّ لا يُحبِبْنَ منْ قلّ مالُـــه وَلاَ منْ رأينَ الشيبَ فيه وقَوَّسَا[١٤]

---

[١٣] دراسات نقدية في الأدب العربي ، د. محمود الجادر ، بغداد ١٩٩٠: ص٢٢.

[١٤] ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٨٤ : ق١٣ / ص١٠٧ .

وعلقمة الفحـــل :

فـــإن تسألوني بالنســـاء فأننـــي بصيـــرٌ بأدواءِ النســـاءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرء أو قلّ مالُه فليس له مـــن ودّهنّ نصيبُ[١٥]
يُردِنَ ثراءَ المـــال حيثُ علِمنـــهُ وشرخُ الشبابِ عندهنّ عَجيبُ

وكان قد أبتدأ هذه الابيات بمطلع مشهور ، ينـــازع قلبـــه فـــي هواه ، ويميل به إلى الأتزان والتعفف ، وقـــد فـــارق الشـــباب ، ولاح الشيب في رأسه ، وهو قوله :

طَحَا بكَ قلبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعيدَ الشبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ[١٦]

والأعشى القائـــل :

وأرى الغواتِيَ حين شِبتُ هَجَرْنَني أنْ لا أكونَ لهـــنَّ مِثْليَ أمـــــردا
إنَّ الغواتـــيَ لا يُواصِلْنَ امـــرءاً فَقَدَ الشبابَ وقد يَصِلْنَ الأمـــردا[١٧]

ويبقى ولوج نصوص شـــعرية أخـــرى قـــد يغنـــي الأحاطـــة بالتفاصيل ، واستشراف تجارب الشعراء الذين أبتلوا بالشيب ن وذاقـــوا مرارة اعراض المرأة عنهم ، والوقوف على ردود أفعالهم إزاء ذلـــك الأعراض ، إلى جانب ما اصطنعوه من (حسن تعليل) يـــداوون بـــه جراحهم النازفة ، كانوا قد أودعوها في (لوحة الشيب) التـــي كـــانت مفتتح بعض القصائد ذات البنية الفنيـــة المكتملـــة ، أو الموضوعـــات الشعرية المتعددة ــ كما أسلفنا ــ ولعل (ميمية) الأسود بن يعفر أقدر الافتتاحيات على تطويع لوحة المرأة لأستعياب آثار المعاناة الموضوعية

---

[١٥] ديوان علقمة الفحل ، تحقيق لطفي الصقال ، ودرية الخطيب ، حلـب ١٩٦٩ : ق١ / ص٣٥ .

[١٦] المصدر نفسه : ص٣٢ .

[١٧] ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق محمد محمد حســـين ، مصـــر ١٩٥٠ : ق٣٤ / ص٢٢٧ .

المتولدة في نفس الشاعر أثر قطيعتها إياه ، بعد اجتماع وود ، واتخاذها خليلا آخر ، ما إن رأت شيبه ، ومفارقته الشباب ، ويبدو أنّ أتجاه الشاعر إلى الفخر " هو رد فعل مشروع لتجاوز المعاناة ، والانطباع غير المستحب الذي تخلفه علامات شيبه في نفس المرأة العاذلة "![18] ألى جانب تعلله بشرب (الغبوق) فهي وحدها من تنسيه همومه وأحزانه وتميله عن حاجته وهواه ، وذلك ما تضمه هذه الأبيات :

قد أصبحَ الحبلُ من أسماءَ مصروما ... بعدَ ائتلافٍ وحُبٍّ كان مكتوما
واستبدلتْ خلةً مني وَقَدْ علمت ... أن لن أبيتَ بوادي الخسف مذموما
عفٌّ صليبٌ إذا ما حُلْبَةٌ أرمتْ ... من خيرِ قومك موجوداً ومعدوما
لما رأتْ أنّ شيبَ المرءِ شاملهُ ... بعدَ الشبابِ وكانَ الشيبُ مسؤومَا
صدّتْ وقالتْ : أرى شيباً تفرعه ... أنّ الشبابَ الذي يعلو الجراثيما [19]

ومن هذا الباب تطالعنا (لامية) زهير بن أبي سلمى ، وهو يعوض لنا معاناته إزاء إعراض العذارى عنه ، بعد إعراض الحبيبة (سلمى) عندما شمل الشيب رأسه ، حتى غدا يُنادى بالعم أثر تركه لهو الصبا ، وصارت ركابه جامةً ، وقد كان يحسرها ، وذلك ما أثارته وقفته عند أعتاب طلل (سلمى) ، وأوحت إليه هذه الأبيات :

صَحَا القلبُ عن سلمى وأقصَرَ باطلُهْ ... وعرِيَ أفراسُ الصبَا ورواحلُهْ
فأصبَحْنَ ما يَعْرِفْنَ إلاّ خَلِيقَتي ... وإلاّ سوادَ الرأسِ والشيبُ شاملُهْ[20]

---

[18] دراسات نقدية في الأدب العربي : ص٢٢

[19] ديوان الأسود بن يعفر ، صنعه د. نوري القيسي ، بغداد ١٩٧٠ : ق٦١ / ص٦٠ .

[20] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعه ثعلب ، القاهرة ١٩٦٤ : ص١٢٤ ــ ١٢٥ .

وكانت تجربة (النمر بن تولب) تشابه تجربة زهير ، إذ هيّجتْ اطلالَ منازل (دعد) الدارسة ، ذكرى حزينة في نفسه ، يوم عيّرته بشيخوخته ، ومفارقته مرحلة الفتوة والشباب ، ولم يجد غير الفخر بنفسه سبيلاً إلى تجاوز معاناته ومحنته ، فقال في هذا الشأن :

أشاقَتْكَ أطلالٌ دوارس منْ دَعْدِ ... خَلاءً مغانيها كَحَاشيةِ البُرْدِ
على أنها قالتْ عشيةَ زُرتُها ... هُبِلْتَ ألمَ يُنْبِتْ لذا حلْمُه بعدي
ألستَ بشيخٍ قد خُطِمتَ بلحْيةٍ ... فيُقصرَ عن جَهْلِ الغرانقةِ المُرْدِ
وإنّي كما قد تعلمينَ لأتّقي ... تُقاي وأعطي من تِلادي للحمد[٢١]

وكان رد فعل (النمر بن تولب) في تجربة أخرى إزاء إعراض النساء عنه ، واخلافهن عهده ، بعد أن علا الشيب رأسه بعد سواده ، صرخة معبرة عن حزنه وألمه ومتنفس له ليقول أن الشيب ليس بآفة تلحق بالمرء كما تراه (النساء الجواهل) ولنا أن نتأمل منطلقات الشاعر في هذه الأبيات :

لَعمري لقدْ اَنكرتُ نفسي ورَابني ... خَلائقُ منها لَمْ تَكنْ منْ شَمائلي
مُطاوَعَتي مَنْ كنتُ لستُ أطيعُه ... وإنّي أرى بَثّي عَنْ اللهوِ شَاغِلي
وأصبحتُ قد أعرَضْنَ عنّي وسُؤنني ... وأخلفنني عهد الخليلِ المماطل
ألاَ أنّ شيبَ الرأسَ ليسَ بآفةٍ ... تَضيرك إلاّ في النساءِ الجَواهِلِ[٢٢]

أما (عوف بن عطية بن الخرع التيمي) فالتمس تذكر شبابه وفتوته ومزاولته الميسر في كرام الأبل ، عندما كان يشيع الخصب والرخاء في جَيرانه وأهل مقامته ، ليسكت سخرية الحبية (فطيمة) منه ، بعد أن رأته شيخاً هزيلاً عليلا خلاف أولئك الشباب ذوي القوة

---

[٢١] شعر النمر بن تولب ، صنعه الدكتور نوري القيسي ، بغداد ١٩٦٩ : ق١٥ / ص٥١ ــ ٥٢ .

[٢٢] المصدر نفسه : ت٣٤ / ص٩٦ .

والنضارة ، فنطالع ما كان يكابده ، وحنينه إلى أيام شبابه في قوله :

سَخِرتْ فُطَيمةُ أنْ رأتني عارياً ... جَرَزِي إذا لم يُخْفِه ما أرتدي
بَصُرتْ بفتيانٍ كانَّ بَضيعهُمْ ... جُرذَانُ رابيةٍ خلتْ لم تُصْطَدِ
إمَّا تَرَيْني قد كَبِرْتُ وشقَّني ... وَجَعٌ يُقرِّبُ في المجالس عُوَّدي
فلقد زَجَرتُ القِدْحَ إذْ هَبَتْ صَبَاً ... خَرقاءُ تَقْذِفُ بالحظَار المُسْنَدِ
في الزاهقات وفي الحُمُولِ وفي التي ... أبقتْ سَنَاماً كالغَرِيِّ المُجْسَدِ[٢٣]

وذلك صنيع (ربيعة بن مقروم الضبي) أيضاً ، عندما لم يجد غير الذكرى وسيلة يتعلل بها إثر تقطع ود الحبيبة (زينب) له ، وبُعدها عنه ، بعد أن غدا " مبيض العذارين أشيبا " ، وهذا ما جعله أن لا يلتفت إلى لوم العاذلات ، ويطاوعهن ، وقد كان قبل ذلك أباءً عليهن ، موافقاً عذلهن .. وهو على الرغم مما آل إليه ما يزال جلداً يقاوم الخصوم ، ويعدل أعوجاجهم ،ملتمسا في هذا الاحساس بالقوة ما يرجع وصل الحبيبة .. فنطالع في هذا الشأن قوله :

تذكّرتُ والذكرى تَهيجُكَ زَيْنَباً ... وأصبحَ باقي وَصلِها قد تَقَضَّبا
وَحلَّ بفلْجٍ فالأباتِرِ أهلُنا ... وشطّتْ فحلّتْ غَمَرةً فمُثقِبَّا
فإمّا تَرَيْني قد تركتُ لجَاجَتي ... وأصبحتُ مُبيضَّ العذارِيْن أشيَبَا
وطاوعتُ أمرَ العاذلاتِ وقد أرى ... عليهنّ أبَّاء القَرِينةِ مشْغَباً
فيارُبَّ خَصْمٍ قد كَفَيْتُ دِفاعَهُ ... وقوَّمْتُ منه درأهُ فتنكَّبا[٢٤]

ويعوّل (ربيعة الضبي) أيضاً في نص آخر بعد أن لاحه

---

[٢٣] الأصمعيات ، الأصمعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، مصر ١٩٧٦ : ق٦٠ / ص١٧٠ .

[٢٤] المفضليات ، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون ، مصر ، ط٣ ١٩٦٤ : ق١١٣ / ص٣٧٥ .

شيب ، على الفخر بحلمه ، ووفائه ، ومروءته ، وكرامته ، وفروسيته ، وشجاعته ، ليرد على مفارقة خليلته (الرواع) إياه ، وعزوفها عنه ، وتغييرها له بأنه شيخ كبير ، إذ يقول :

ألاَ صَرَمتْ مَودَّتَكَ الـرُّواعُ ... وَجدَ البينُ منها والـوَدَاعُ
وقالتْ إنَّـهُ شيـخٌ كبيـرٌ ... فَلَجَّ بها ولم تَرعِ آمتنَـاع
فإمَّا أمسِ قد راجعتُ حِلْمِـي ... ولاحَ عليَّ من شيْبٍ قِنَـاعُ
فقد أصلُ الخيـلَ وإنْ نآنـي ... وغِبُّ عَدَاوتي كَلاًّ جُـدَاعُ
واحفظ بالمَغيبةِ أمْرَ قومِـي ... فلا يُسْدى لَديَّ ولا يُضَـاعُ
ويَسْعَدُ بِي الضريك إذا اعتراني ... ويكْرَهُ جانبي البطلُ الشُّجاعُ[٢٥]

وكان إنكار الشيخوخة ، والتمسك بروح الشباب والتصابي ، هو ما عوّل عليه بعض الشعراء في تبديد مشاعر الأسى والحزن التي يخلفها إعراض النساء عنهم ، وتجاهلهن لهم ... فهذا امرؤ القيس واحد من هؤلاء الشعراء إذ نطالع بعد وقفته الطللية في مفتتح مطولته " ألاعم صباحا .. " أبياتاً أقرب ما تكون إلى محاورةٍ يكذّب فيها ما زعمته المرأة (بسباسة) من أنه لا يحسن اللهو لكبره ، من خلال تأكيده لها أنّ النساء يصبونَ إليه لجماله وحسنه ، وأنه ما زال متمتعاً بنضارة تمنع من أن تمد أي أمرأة طرفها إلى غيره كما قوله :

اَلا زَعَمَتْ بَسْبَاسةُ اليـومَ أنّنـي ... كَبِرْتُ وألاَ يُحْسِنُ اللَّهوَ أمثالـي
كذبْتِ لقد أُصبي على المرء عِرْسَهُ ... وأمنعُ عِرسي أن يُزَنَّ بها الخالي[٢٦]

وفي اجابة (دوسر بن ذهيل القُرَيْعِي) عن تسأول احدى النساء المفعم بالسخرية من مظهره وشيبه وأسباب تركه لَهْوَ الصِّبَا ، ما يقع في هذا المجرى أيضاً ، عندما رسم أبعاد صورة تقوم على التفريق بين

---

[٢٥] المصدر نفسه : ق٣٩ / ص١٨٦ .

[٢٦] ديوان امرئ القيس : ق٢/ص٢٨ .

مظهره وجوهره ، فاثوابه التي تراها تلك السائلة ممزقة بالية هي كغمد بال لنصل سيف شبه نفسه به ، وان لم يحل دون إحساس بأنه مـــا زال في أول الشباب وأفضله ، ناقلا لنا هذه المحاورة في قوله :

وقائلةٍ مـا بـــالُ دَوْسَرَ بَعدَنَـــــا ... صحَا قَلبُهُ عن آل ليلى وعَنْ هندِ
فإن تَكُ أثوابي تَمَزّقْـــنَ للبلَـــى ... فإنّي كنصل السيف في خَلَقِ الغمْدِ
وإنْ يَكُ شَيْبٌ عَلاتـــــي فُربّمـــا ... أراتِيَ في رَيْعِ الشَّباب مع المُرْدِ[٢٧]

إمَا (الاعشى) فيبدو منفرداً عن غيره من الشعراء ، عندمـــا قرر أن يصل حبل الود من (سلمى) بعد أن أنقطـــع لطـــول الـــهجر والاجتناب ، وبعد الشيب يبغي ودها ، وهو من قرّر أيضـــاً أن يكـــفّ عنها ، بعد أن قاسى العذابَ في حبها من قبلُ ! مشبهاً حاله بالزجاجـــة التي لا تلتئم إذا تحطمت وأن شدت بعصاب ، فيقول في بائية له :

أوصتَ صُرمَ الحَبْـل مـــن ... سلمـــى لطـــول جنَابِهـــا
ورجعتَ بعد الشّيـب تبْـــ ... ـغِي وُدّهَـــا بِطلابِهـــا
أقصِـــرْ فإنّـــكَ طالمَـــا ... أُوضِعْـتَ في إعجَابِهـــا
أولَنْ يُلاحَـــمَ فـــي الزُجـــا ... جةِ صَـدْعُها بِعصَابِهـــا[٢٨]

ويبدو أن عزو الشيب إلى الخطوب والحوادث ، لا إلـــى كـــبر السن ، وتقدم العمر ، كان حسن تعليل من شعراء آخرين ، لأدامة تعلق النساء بهم وتجاوز أعراضهن عنهم ، إذ كانت " الحبيبة تثير في نفـــس المحب أهتمامه الكبير بشأنها ، ولهذا نجدها موضع عنايته يتوجه إليـــها بجليل أعماله ، وصفات فروسيته الكريمة "[٢٩]. وذلك ما نطالعه في قول

---

[٢٧] الأصمعيات : ق٥٠ / ص١٥٠ .

[٢٨] ديوان الأعشى الكبير : ق٣٩ / ص٢٥١ .

[٢٩] المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، بغداد ١٩٦٠ : ص١٢٩ .

(عروة بن الورد) وهو يرد على سؤال خفي لمحبوبته كان قد أثارهـا ما علاه من شيب قائلاً :

فما شَابَ رأسي من سنينَ تتابعتْ طوال ولكن شَيَّبتْهُ الوقائـعُ[٣٠]

وكان ذلك منطلق (عمرو بن معد يكرب) أيضا ، إذ يخبرنـا أن شيبه الذي تعجب له (أمامة) ليس مما يعيب ، فهو خضاب الحوادث وما أثرت فيه أهوال الحروب التي خاضها كما في قوله :

وقد عجبتْ أُمامـةُ أنْ رأتنـي تفـرع لِمّتـي شَيبٌ فظيـعُ
أشابَ الرأسَ أيـامٌ طـوالٌ وهـمّ ما تبلغُـه الضلـوعُ
وَسَوْقُ كتَيبةٍ للقـاءِ أخـرى كأن زهاءهـا رأسٌ صَلِيـعُ[٣١]

وهذا (عبد الله بن جنح النكري) الـذي تسـبب (شـيبه) بمقاطعة الجميلات له وسخريتهن به ، يرى أن بياض رأسه ليس مـن علو سنة ، وتقدم عمره ، وإنما هي الحروب شيبن رأسه ، مؤكدا لتلـك النسوة أنه ما زال ذلك القوي الذي يقتحم الاهوال ويذب عن الحريـم ، وقد سرد لنا ما دار بينه وبينهن في هذه الأبيات :

زَعمَ الغواني أنْ أرَدْنَ صَريمتي أنْ قد كَبِرْتُ وأدبـرتْ حاجاتـي
وضَحِكْنَ مني ساعـةً وسألنني مُذْكَمْ كـذا سنةً أخـذتُ قَنَاتـي
ما شِبتُ منِ كبَرٍ ولكنّي امـرؤٌ أغشى الحروبَ وما تَشِيبُ لِذَاتي
أحمي أناسي أن يُباحَ حريمُهُـمْ وَهُمُ كذاك إذا عُنِيتُ حُمَاتـي[٣٢]

ومن النصوص التي تفردت بصورها وأبعادها الفكرية ، مفتتـح بائية (معاوية بن مالك) وهو (معوِّد الحكماء) في تضمنها الاشـارة

---

[٣٠] ديوان عروة بن الورد، تحقيق عبد المعين الملوحي، دمشق ١٩٦٦: ص٥٦ .

[٣١] ديوان عمرو بن معد يكـرب ، صنعـه هاشـم الطعـان ، بغـداد ١٩٧٠ : ق٥٢ ، ص١٣٩ ــ ١٤١ .

[٣٢] الأصمعيات ، الأصمعي : ق/ ص١١٤ .

إلى أنه وحبيبته (سلمى) قد أضحيا كبيرين يعلوهما الشيب ، فأقصر كل منها عن جهل الصبا ، كما شابت لداته من النساء وعدلن عنه مسترجعاً أيام صباهما ، يوم كانت (سلمى) فاتنة الرجال ، وكان هو قانص النواهد ، حتى يعلن وفاءه لذلك العهد البعيد في وقفته عند اعتاب اطلاها بعد قوله :

اَجدّ القلبُ من سلمى اجْتنابا ... وأَقْصرَ بعدما شابتْ وَشَابا
وشابَ لداتُهُ وعَدَلْنَ عنه ... كما أنْضيْتَ من لُبْس ثِيابا
فإن تَكُ نَبْلُها طاشَتْ وَنَبْلي ... فقد نَرمي بها حِقَباً صِيَابا
فتصطادُ الرجالَ إذا رَمتهُم ... واصطادُ المخبّأةَ الكَعَابا[٣٣]

ولم يقتصر الأمر على اعراض الحبيبة أو الزوجة عن الشعراء المبتلين بالشيب إنما تجاوزه إلى أثارة شجون البنت ، ومخاوفها من كبر أبيها وعلو سنه ، حتى أنها لم تكن تُسّر بمنظره عندما علا الشيب رأسه ، وذلك ما نلمحه في هذه المحاورة الشعرية بين الشاعر الأب (اعصر بن سعد بن قيس عيلان) وابنته (عُميرة) ، المتضمنة أجابته عن استغرابها لشيبه الذي لم يجد سببا يعزو إليه ظهور الشيب غير الهموم وتبدل الأحوال ... وذلك ما أودعه الشاعر لنا في هذين البيتين :

قالتْ عُميرةُ : ما لرأسكَ بعدَما ... نفد الزّمانُ أتى بلون مُنْكرِ
أعُميرَ إن ابـاكِ شَيّبَ رأسَهُ ... كرّ الليالي واختلافُ الأعْصرِ

وقد عدّ ابن سلام الجمحي في " طبقاته " هذين البيتين مما يروى من قديم الشعر وأنه سمي (اعصر) وهو (منبه أبو باهله وغني والطفاوة) لقوله هذا .[٣٤]

---

[٣٣] المفضليات ، المفضل الضبي : ق١٠٥ : ص٣٥٧ .

(٣٤) طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمعي ، قرأه وشرحه محمود شاكر القاهرة د.ت ، السفر الأول : ص٣٣ .

الجزع من الشيب ... وبكاء الشباب :

إذا كانت صورة المرأة أكثر حضورا في لوحة الشيب ، فـــأن بامكاننا القول أن لوحة (بكاء الشباب) في مفتتح بعض القصائد هـــي أكثر أحتضانا لظاهرة الشيب .. لعله بسيطة هي أن الضد لا يعـرف إلا بالضد ، أي أن من تمتع بالشباب وعاش مرحلتـــه بهجـــة وســـروراً ، وشعر بما كا يمنحه أياه من قوة ونضارة وممارسة لمتع الحياة الحسية ، واحساس باللذة واستغراق لحالات وجدانية ، كان حريا به أن يعود إلـى الشباب ليخبره " بما صنع المشيب"[٣٥]. وإذا كان المرء مدركـــا تمامـــا وعاجزا عن مقارعة جريان الزمن ، كما عجز الأولون من قبله فحسبه أن يبكي زمنا مدبرا ممثلا في الشباب ، أوقل في الحياة ولذتها ومتعها ، وآخر مقبلا لا يحمل غير اعباء الشيخوخة وسقمها وشقائها وتهافتـــها " وما بكت العرب على شيء مثلما بكت على الشباب" .[٣٦]

ومن هنا حق البكاء على مفقود والجزع من آت ، في معادلـــة يستحضر فيها الضدان اللذان لا ينبئان الا عن اثر الزمن (المادي) في الناس وتقلبهم من حال إلى حال . ويبدو أن الشعراء كانوا من أفصـــح عن جريان الزمن من خلال التحول من الشباب إلى المشـــيب ، وقـــد تبايت رؤاهم في هذا الشأن تباينا في التفاصيل ، أو الصـــور الفنيـــة . وبوسعنا أن نرصد مضامينها الفكرية في لمحات ذات مدلول ... منـــها ما نطالعه في (ميمية) (عمرو بن قميئة) الذي وصفه الأقدمون أنـــه

---

[٣٥] أنظر : بكاءالناس على الشباب وجزعهم من الشيب ، ابن الجوزي ، تحقـــيق هلال ناجي ، مجلد المورد ، المجلد الثاني ، العدد الثالث ١٩٧٣ : ص٩٣ .

[٣٦] المستظرف في كل فن مستطرف ، الابشيهي / بيروت د.ت : ٢/ص٦ .

أول من بكي شبابه[٣٧] في قوله :

يالهفَ نفسي على الشباب ولم ... أفقدْ به إذ فقدتـــهُ أممـــا
قدْ كنتُ في مَيْعة أُسرُّ بهـــا ... أمنع ضيمي وأهبط العُصَـا
واسحب الرّيطَ والبـرودَ إلـى ... أدنى تجاري وأنفضُ اللِّممـا
لا تَغبطْ المرءَ أن يقـالَ لـه : ... أمْسَى فُلانٌ لِعُمرهِ حكَمَـا[٣٨]

واضح أن الشاعر قد بلغ من تقدم السن ما جعله يتحسر علـى ايام الشباب التي عاشها في سرور ودعة ، ولا يرى شيخوخته ما يحسد عليه ، وأن أمسى بهذا العمر حكما !

ويضم ديوان (الأسود بن يعفر) بائية تصدرتها أبيات تنقل لنا مشاعر إنسان حزين كئيب ، يتحسر على شباب ماضٍ لا رجعة لـه ، ويئن من وطأة شيخوخة لا جدوى من البكاء عليها ، فذلك ما آل إليـه حاله بعد حلم جميل عاشه في ظلال شبابٍ ليته لم ينقض ، وهو يرسـل في أثر ذكرياته هذه الحسرة المؤلمة :

هل لشبابٍ فاتَ عـن مَطْلـبِ ... أم ما بُكـاءُ البائس الأشيـبِ
إلا الاضاليل ومـن لا يَـزَلْ ... يُوفي على مهلكـه يعصـبِ
بُدّلتُ شيباً قـد عـلا لمّتـي ... بَعْدَ شبـابٍ حَسـنٍ مُعْجـبِ
صاحبتُـه ثُمّـتَ فارقتُـهُ ... ليت شبابـي ذاك لـم يَذْهـبِ
وقد أُراني والبلى كأسمـه ... إذ أنا أصلْـع ولـمِ أحـدَبِ
ولم يُعرّني الشيـبُ أثوابَـهُ ... أصبي عُيونَ البيضِ كالرَّبـربِ[٣٩]

---

[٣٧] معجم الشعراء ، المرزباني، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٦٠ :ص٣ .

[٣٨] ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق خليل إبراهيم العطيـة ، بغـداد ١٩٧٠ ، ق٤/ ص٤٠ .

[٣٩] ديوان الإسود بن يعفر : ق٦/٢١ــ٢٢ .

وفي ابيات مفردة يبكي (المرقش الأكبر) فقد الشباب ، ويتألم لما أصابه من مشيب وصلع ظاهر ، في صورة شعرية مفحمة باليأس والقنوط من أن ينفع الخضاب في ارجاع عجلة الزمن إلى الوراء ، ان نفع في ستر الشيب الذي بدا كزهر ابيض فوق رأس أصلع ، حتى أن القمل لم يجد لبيضه مكاناً فيه ! مشبهاً رأسه بأرض لم تمطر بين ارضين معطورتين بعد سواد شعر كسواد الغراب ، وذلك في قوله :

هل يَرْجِعَن لي لمتّي إنْ خَضَبْتُها إلى عهدها قبل المشيب خِضَابُها
رأتْ أُقحوانَ الشيبِ فوق خَطِيطةٍ إذا مُطِرَتْ لم يَستَكِنَّ صُؤَابُهَا
فإنْ يُظْعِنِ الشيبُ الشبابَ فقد تُرَى به لِمَّتي لم يُرْمَ عنها غُرابُها [٤٠]

ويسوق (المزرّد بن ضِرار الغطفاني) معادلة بين الشيب والشباب ، من خلال حديثه عن صحوته من الحب وأسفه للشيب الذي نشأ في الرأس في لون أبيض في الثمر والزهر ، وقد جلله ، الخضلب بلون أحمر قانئ لا يخفي كبر سنه ، آسفاً لهذا الكبر الذي باعد بينه وبين حب (سلمى) ومن هنا كان حزيناً لمقدم الشيب وفراق ريعان شبابه قائلاً :

صَحَا القلبُ عن سلمى وملَّ العواذلُ وما كاد لأياً حبُّ سلمى يُزايلُ
فؤاديَ حتى طار غيُّ شبيبتي وحتى علا وخطٌّ من الشيب شاملُ
يُقنّئُهُ ماء اليرنأ تَحتَه شَكِيرٌ كأطراف الثَغامة ناصِلُ
فلا مرحباً بالشيب من وفد زائرٍ متى يأت لا تُحجبْ عليه المداخلُ
وسقياً لريعانِ الشبابِ فإنّه أخو ثقةٍ في الدّهر إذ أنَا جَاهلُ[٤١]

---

(٤٠) المفضليات ، المفضل الضبي : ق٥٣ / ص٢٢٦ .

(٤١) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني ، تحقيق خليل إبراهيم العطية ، بغداد ١٩٦١ : ق٢ : ص٣٢ــ٣٣ .

ويبدي (سلامة بن جندل) تفجعه من هلاك الشباب وانتهائه سريعا بما لا يدركه حتى " ركض اليعاقيب " والشيب في اثره لينهي حياة شباب مفعمة باللذة وطيب العيش ، وذلك وحده مبعث مسرة ممزوجة بأمنية يتعلل الشاعر بها ، وهي أن يدوم الشباب حتى يدوم الحب واللهو والصبا ، ولنا أن نتأمل ذلك في قوله :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ ... أودى وذلك شأوَ غيرُ مطلوبِ
ولّى حثيثاً وهذا الشيب يطلبُه ... لو كان يدْركهُ ركضَ اليعاقيبِ
أودى الشبابُ الذي مجدّ عواقبُهُ ... فيه تَلَذُّ ولا لذات للشيْبِ
وللشبابِ إذا دامتْ بشاشتُهُ ... ودَ القلوبِ من البيضِ الرّعابيبِ[٤٢]

أما (مالك بن حَرِيم الهمداني) فلم يجد مفرا من الجزع من الشيب ومفارقته ريع الشباب وأن لم يك شأنه الجزع ! مشبها ما ظهر من شيب في سواد شعره بقطيع من بقر الوحش فيه سواد وبياض في منخفض من الارض أخصب بعد جدب ، وكان ذلك سببا في أن ينفر منه أخوانه ويؤثروا عليه في مجلس القوم كل شاب تام الشعر اسوده وقد وجد في تذكر الحبيبة (سلمى) والتشبيب بها ، بعد أن طرقه خيالها في سفره وفخره باتصافه بمآثر اربع هي : نجدته ، وقِراه وعفته وكرمه ، ما يبدد معاناته وجزعه من الشيب ، وذلك ما نطالعه في بعض ابيات عينيته التي تصدرت قوله :

جَزْعتَ ولم تَجزعْ من الشيب مَجْزَعَا ... وقد فات ربْعيُّ الشباب فودَّعا
ولاحَ بياضٌ في سَوادٍ كأنّه ... صُوارٌ بجوٍّ كان جَدْباً فأمْرَعا
وأقبلَ إخوانُ الصَفاء فأوضعُوا ... إلى كلِّ أحوى في المقامة أفْرَعا

---

[٤٢] ديوان سلامة بن جندل ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، حلب ١٩٦٨ ، ق٥ / ص١٢٦ .

تذكـرت سلمـى والركاب كأنهـا قطا وارد بين اللفـاظ ولعلعـا
فحدثتُ نفسي أنّها أو خَيالَهـا اتانا عِشاءً حيـن قُمنـا لنـهْجَعَا[٤٣]

وينفرد (سَعْية بن العُرَيض) بموقف فكري رائد ينبئ بقناعتـه انه غدا شيخا فانيا ، وانه لن يعود إليه شبابه الهالك ، وعزّى نفسه بانه جرى مع الشباب في إبانة . وهو مكتف بحلمه في كبره ، وعندما يشعر بعجز فلا يستنكف أن يستشير كل صاحب رأي ، وذلك مـا نطالعـه مقطوعته التي ضمت بقية ابياتها ما يتحلى به من مناقب تسر قومه بعد ان يقول :

ألاَ إنّي بَلِيـتُ وقـدَ بقيـتُ وأني لن أعودَ كمـا غَنِيـتُ
فإنْ أودى الشبابُ فلـم أضِعْهُ ولم أتكِلْ على أنّـي غُذِيـتُ
إذا ما يهتـدي حِلمي كفاتـي وأسألُ ذا البيان إذا عَيِيتُ[٤٤]

ولعل (النمر بن تولب) في لامية ضمها ديوانه ، أقـدر مـن رسم صورة الجسد بعد الشيب والشيخوخة ، فقد انكر نفسه وهو يـرى تغير جلده لكبره بعدما كان مكتنز اللحم فضلاً عن تبدل لهيئته ، وقـد شبه يرقان بدنه لماء الشباب بالاديم المصقول ، وأنه إذا مشـى ليس بمكسور ، متدثرا بكساء في عزلة غير متعلل فيها بأكل ولا بشرب ولا بمال .. حتى دعاه ذلك إلى أن يستعبر كل من يود الحيـاة وطولـها ، بواقع تجربته المريرة في ظل الشيخوخة والهرم قائلاً :

لَعَمري لقد أنكرتُ نفسي ورابني مع الشيب أبْدَالي التـي أتبـدّلُ
فُضُولَ أراها في أديمي بعدَمـا يكون كِفافُ اللحم أو هوَ أفضـلُ
كأن مَحطّاً في يديْ حارثيـةٍ صَناعٍ علَتْ مني به الجلدَ من عل

---

[٤٣] الأصمعيات ، الأصمعي : ق١٥/ص٦٢ .
[٤٤] المصدر نفسه : ق٢٢/ ص٨٣ـ٨٤ .

ودهري فيكفيني القليل وأنّني ... أؤوب إذا ما أبتُ لا أتعللُ
تَدارَكْ ما بعدَ الشبابِ وقبلَهُ ... حوادثَ أيامٍ تمرُّ وأغفلُ
يود الفتى طولَ السلامةِ والغنى ... فكيف ترى طولَ السلامةِ يفعلُ[٤٥]

ويبدي (عدي بن زيد) تذمره وسخطه من الشيب الذي علاه ، وقد عدّه ضيفا غير مرغوب فيه طالما أراد النجاة منه ، دون طائل مدركاً أنه حياة الهم والسقم ، بعد شباب هو لذة العيش وحسن الفعال وكان الاحب الاقرب ... ذلك ما نطالعه في هذه الأبيات :

نَزَلَ المشيبُ بوفدِهِ لا مرحبا ... ورَأى الشبابُ مكانَه فتجنَّبَا
ضيفٌ بغيضٌ لا أرى لي عُصرةً ... منه هَرَبْتُ فلم اجدْ لي مهْربا
بُدِّلتُ بالعيش اللذيذ ونعمة الـ ... ـعُمْرين هَمّاً شاهدا ومغيَّبَا
ولقد يُصاحبني الشبابُ فلم أكنْ ... آتي به إلا الفَعَالَ الأصوبا
ولقد حفظتُ مكانَهُ ورَعيتُهُ ... وَجَعَلْتهُ منّي الأحبَّ الأقربَا[٤٦]

وفي نص آخر يعي (عدي بن زيد) أن بكاءه على الشباب وجزعه من الشيب لن يحقق عودة شبابه إليه ، فهو زمن ماض لا يرجع ، والشيب علامة على جريانه ، ودالة على سنه ، كما في هذه المقطوعة :

بانَ الشبابُ فمالَهُ مردودُ ... وعليّ من سِمةِ الكبير شُهودُ
شيبٌ برأسي واضحٌ أعْقبْتُهُ ... من بعد آخر بَانَ وهو حَميدُ
وارى سوادَ الرأسِ ينقُصُهُ البلى ... والشيبُ عن طُول الحياة يَزيدُ
ولقد بكيتُ على الشباب لو أنّهُ ... كان البكا ءُ به عليَّ يَعُودُ
ليس الشبابُ وأنْ جَزِعْتَ براجعٍ ... ابداً وليس له عليكَ مُعيدُ[٤٧]

---

[٤٥] شعر النمر بن تولب : ق٣١/ص٨٤ــ٨٧ .

[٤٦] ديوان عدي بن زيد العبادي ، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد ، بغداد ١٩٦٥ : ق٢٤/ص١١٣ .

[٤٧] المصدر نفسه : ق٤٠/ ص١٢٣ .

وتطالعنا ابيات مبثوثة في تضاعيف لوحات فنية ، وموضوعات شعرية آخر متضمنة آهات الشعراء وحسراتهم وزفراتهم من أفعال الشيخوخة وادبار الشباب ، وهي تعكس في مجملها تأثير الشيب أو قل الزمن في نفوسهم بعد أحساس بوطأته عليهم ، وتجاوزهم نضارة الشباب ،معبرين عن ذلك بصورة شتى ، فمنهم من شبه الشباب بـ " سحاب ريح " ماض لا يرجع وذلك في قول بشر بن أبي خازم :

قليلا والشباب سحاب ريح إذا ولى فليس له ارتجاع[٤٨]

ومنهم من يرى ان الشيب نذير الشر وذلك ما نتأمله في قول عدي بن زيد :

وابيضاض السواد من نذر الشـ ـر وهل بعده لأنس نذير[٤٩]

وفي منطلق (الأعشى) أن الشباب غير حليف للمرء ، ليذكر بذلك كل من يستاء من حلول الشيب ، ولا يتجمل بالصبر ، إذ يقول :

ولقد ساءها البياض فلطـت بحجاب من دوننا مسدوف
فاعرفي للمشيب إذ شمل الرأ س فإن الشباب غير حليف[٥٠]

أما عبيد بن الأبرص فيعد الشيب عيبا لمن يشيب ، قائلا في هذا الشأن :

والشيب شين لمن أرسى بساحته لله در سواد اللمة الخالي[٥١]

---

[٤٨] ديوان بشر بن أبي خازم ، تحقيق د. عزة حسن ، دمشق ١٩٧٢ : ق٢٣/ ص١١٢ .

[٤٩] ديوان عدي بن زيد : ق١٦/ص٨٥ .

[٥٠] ديوان الاعشى الكبير : ق٦٣ / ٣١٣ .

[٥١] ديوان عبيد بن الأبرص ، تحقيق حسين نصار ، مصر ١٩٥٧ : ق٤ / ص١٠٤ .

فضلاً عن عشرات النصوص الشعرية الأخرى المفصحة عن شكوى المعمرين ومعاناتهم مما الحقه الزمن بهم .[٥٢]

الشيب ... في تجارب الشعراء الحياتية :

لقد مرّ بنا أن الشيب كان العلامة الظاهرة لواقع التغير الطارئ على حياة الإنسان (الشاعر) وقد عبر عن ذلك من خلال تجربته مع المرأة، وتحسره على انقضاء الشباب، وتذكره ايامه،وجزعه من الشيب، وبغضه له ، حتى يمكن القول أن الشيب في المبحثين المتقدمين كان (غاية)حين يتغزل الشاعر أو يعاتب أو حين يبكي أو يجزع ! .

فضلاً عن ذلك نطالع نصوصا شعرية أخرى تكشف في أبعادها الفكرية عن استعانة الشعراء بالشيب في تجاربهم الإنسانية المختلفة ، وقد غدا ــ أي الشيب ــ وسيلة فيها لا غاية !

ومما يدعم وجهة النظر في هذا الشأن أن حديث الشعراء من الشيب اقتصر على البيت المستقل ــ في الأغلب الأعم ــ ولم يودع في أطار لوحة فنية مستقلة به ، وهذا ما يتعلق بالخصائص الشكلية أو المظهر الخارجي لنظام القصيدة ، أما من الناحية المضمونية فأننا لا نقرأ ما يفصح عن شكوى الشعراء وجزعهم أو بكائهم أو حزنهم على الشيب ، إذ غالبا ما يكون حديثهم عنه ــ بشكل عرضي أو عابر من اجل تحقيق زخم تأثيري يستدر تعاطف المتلقي وقناعته بالموقف الموضوعي .

---

[٥٢] أنظر على سبيل المثال لا الحصر : ابيات (زهير بن جناب الكلبي) في طبقات فحول الشعراء ... : ص٣٥ــ٣٧ ، وشعر (الربيع بن ضُبَيع الفزاري) جمع د. عادل البياتي ، ضمن كتاب (دراسات في الأدب الجاهلي) المغرب ١٩٨٦ : ق٤ / ص٢٢٨ .

وحسبنا في هذه الطائفة من النصوص الشعرية ، ما يقطع لنا الشك باليقين ، فعلى سبيل المثال . لا الحصر . نقرأ في احد ابيات دالية (دريد بن الصمة) الذائعة الصيت رثاء لاخيه (عبد الله) يتكئ فيه على ظاهرة الشيب ليصفه بالاناة والحلم وحزم الشيوخ ــ بعد جهلة الفتوة واللهو ــ ما أن ملأ الشيب رأسه ، وذلك ما نتأمله في قوله :

صَبَا ما صَبَا حتى عَلاَ الشّيبُ رأسَهُ فلمّا عَلاَهُ قال للباطلِ ابعُدِ[٥٣]

أما (الأعشى) فيتوسل بـ (شيبه) أو قل (بوقاره) ليدفع عن نفسه تهمة الأنتحال التي عدّها عاراً ما بعده عار في مثل سنه ، حتى يحقق الأطمئنان والشعور بامانته ، وذلك ما ضمنه بعض ابيات (رائيته) ولا سيما قوله :

فَمَا أَنَا أمْ انتحالي القَوا في بعَد المشيبِ كفى ذاكَ عَارَا
وَقَيّدَنِي الشّعرُ في بيتِهِ كَمَا قيّدَ الآسراتُ الحِمارَا[٥٤]

ويبدو أن (الخنساء) لم تجد افضل من الشيب تتجلل به ، لتعبر من خلاله عن أهات نفس متوجعة ، ونفثات صدر متألم حزنا على مقتل (صخر) أخيها ، وفقدها اياه ، وذلك ما أودعته لنا في هذه المحاورة :

تقولُ نساءٌ شِبْتِ من غيرِ كَبْرَةٍ وأُيْسَرُ مما قد لَقيتُ يُشيبُ
اقول ابا حسّانَ لا العيشُ طيّبٌ فكيف وقد أُفردتُ منك يَطيبُ[٥٥]

وهذا (حسان بن ثابت) يعمد إلى رسم صورة تكريه الحرب بتشكيل فني يقوم على المبالغة والأغراق ، تتكئ أبعاده الفكرية على

---

[٥٣] الأصمعيات ، الأصمعي : ق٢٨ / ص١٠٨ .

[٥٤] ديوان الأعشى الكبير : ق٥/ ص٥٣ .

[٥٥] ديوان الخنساء ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت ١٩٦٣ : ص١٥ .

تشيب (الناهد العذراء) من هولها ، وسقوط (الجنين) من مخافتـها ، في دلالة لفظة الشيب المعبرة عن الأسى والحزن وتلاشـــي النضـــارة والصبا ، بما يتلاءم مع ما تخلفه الحرب من آثار في نفوس المصطلين بها ، كما في قوله :

تشيب الناهد العذراء فيهـا ويسقط من مخافتها الجنين[٥٦]

ويشاطره في هذا الشأن (عمرو بن معد يكرب) الذي لم يجـد أفضل من صورة العجوز (الشمطاء) لينعت بها الحرب حين تســتعر وتشيب ضرامها ويقبحها في النفوس بعد أن تبـــدو ــ أي الحـرب ــ للوهلة الأولى فتاة جميلة يسعى إليها من يجهل ما تخفيه وراء زينتـها " وكان العرب لا يقولون امرأة شـــيباء أنمـــا اكتفـوا بالشـمطاء عـن الشيباء "[٥٧] كما في هذه الأبيات :

الحرب أول ما تكون فتيـــة تسعى ببزتها لكـل جهـــول
حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزا غير ذات حليـل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهـة للشم والتقبيـــل[٥٨]

وقد يطول بعد ذلك أمر استقصاء أمثلة شعرية لا ســبيل إلـى حصرها فحسبنا أن ما استشهدنا به قد يعطي تصورا بشأن أثر ظـاهرة الشيب في البنية الفكرية والفنية لبعض القصائد عندما يغدو الشيب نفسه غاية ، فضلا عن أثره في إبراز الأبعاد الفكرية ، وتشكيل الصور الفنية للأبيات المفردة التي كان حضوره فيها وسيلة .

---

[٥٦] شرح ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت ١٩٨٠ : ص٤٧٨ .

[٥٧] اللسان : شيب .

[٥٨] ديوان عمرو بن معد يكرب ، تحقيق هاشم الطعان ، بغداد ١٩٧٠ : ق٦٦ــ١٥٦ .

المصـــادر والمراجـــع

١ــ القرآن الكريم .

٢ ــ الاسطورة في الشعر العربي ــ قبل الإســـــلام ــ أحمـــد إســـماعيل النعيمـــي ، دار ســـــينا ، مصـــــر ١٩٩٥ : ص٢٤٠ ــ ٢٤١ .

٣ــ الاصمعيات ، الأصمعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، مصر ، ١٩٧٦ : ق٦٠ / ص١٧٠ .

٤ــ بكاء الناس على الشباب وجزعهم مـــــن الشـــيب ، ابـــن الجوزي ، تحقيق هلال ناجي ، مجلـــد المـــورد ، المجلـــد الثاني ، العدد الثالث ١٩٧٣ : ص٩٣ .

٥ــ البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هـــارون ، القاهرة ، د. ت : ١ / ص١٨٧ .

٦ــ الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د. مصطفـــــى عبـــد اللطيف ، بغداد ١٩٧٧ .

٧ــ دراســات فــي الأدب الجــاهلي ، د. عــادل البيــاتي ، المغرب ١٩٨٦ .

٨ــ دراسات نقدية في الأدب العربي ، د. محمــود الجــادر ، بغداد ١٩٩٠ .

٩ــ ديوان الأسود بن يعفــر ، صنعــه د. نــوري القيســي ، بغداد ١٩٧٠ .

١٠ــ ديوان الأعشى ، شرح وتعليق محمد محمــد حســين ، مصر ١٩٥٠ .

١١ــ ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيــم ، مصر ١٩٨٤ .

١٢ــ ديوان بشر بن ابي خازم ، تحقيــق د. عــزة حســن ، دمشق ١٩٧٢.

١٣ــ ديوان الخنساء ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت ١٩٦٣ .

١٤ــ ديوان ذي الاصبع العدواني ، جمعه وحققع عبد الوهــاب العدواني ، ومحمد فايق الدليمي ، الموصل ١٩٧٣ .

١٥ــ ديوان سلامة بن جندول ، تحقيق د. فخر الدين قبـــاوة ، حلب ١٩٦٨ .

١٦ــ ديوان طرفة بن العبـــــد ، تحقيـــق كـــرم البســـتاني ، بيروت د.ت .

١٧ــ ديوان عبيد بن الأبـــرص ، تحقيـــق حســـين نصـــار ، مصر ١٩٥٧ .

١٨ــ ديوان عدي بن زيد العبادي ، حققه وجمعه محمد جبـــار المعيبد ، بغداد ١٩٦٥ .

١٩ــ ديوان عروة بن الورد ، تحقيق عبد المعين الملوحـــــي ، دمشق ١٩٦٦ .

٢٠ــ ديوان علقمة الفحل ، تحقيق لطفي الصقـــــال ، ودريـــة الخطيب ، حلب ١٩٦٩ .

٢١ــ ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق خليل إبراهيم العطيـــة ، بغداد ١٩٧٠ .

٢٢ــ ديوان عمرو بن معد يكرب ، صنعه هاشـــم الطعـــان ، بغداد ١٩٧٠ .

٢٣ــ ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني ، تحقيق خليل إبراهيم العطية ، بغداد ١٩٦١ .

٢٤ــ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، عبد الاله الصائغ ، بغداد ١٩٨٢ .

٢٥ــ شرح ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت ١٩٨٠ .

٢٦ــ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة ثعلب، القاهرة ١٩٦٤.

٢٧ــ شعر النمر بن تولب ، صنعه د. نوري القيسي ، بغداد ١٩٦٩ .

٢٨ــ طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، قرأه وشرحه ، محمود محمد شاكر ، القاهرة ، د.ت .

٢٩ــ كلكامش ، د. سامي سعيد الأحمد ، بغداد ١٩٩٠ .

٣٠ــ لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٦ .

٣١ــ المــرأة فــي الشــعر الجــاهلي ، علــي الهاشــمي ، بغداد ١٩٦٠ .

٣٢ــ المستظرف فــي كــل فــن مســتظرف ، الابشــيهي ، بيروت د.ت .

٣٣ــ معجم الشعراء ، المرزباني ، تحقيق عبد الستار فـواج ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٤ــ المفضليات ، المفضل الضبي،تحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، مصر ١٩٧٦ .

٣٥ــ ملحمة كلكامش بن طه باقر ، بغداد ١٩٧٠ .

٣٦ــ هو الذي رأى (ملحمة قلقمش) ، عبد الحق فــاضل ، بغداد ١٩٨١ .